ابن بطوطه وبلاد السودان

لقينا بالامس رجلاً من ضباط الجيش البريطاني اخبرنا انهُ جال في السودان الغربي التابع لفرنسا ورأى فيهِ كثيراً من الآثار الدالة على عمران سابق يفوق عمرانهُ الحالي وقال ان احد كتّاب العرب وصفهُ منذ نحو ستماية سنة فقلنا لعلهُ ابن بطوطه فقال هو هو فرجعنا الى ابن بطوطه فرأينا في ما كتبهُ عن السودان فوائد حرية بالنشر فاثبتنا منهُ ما يلي وابقينا الكلام بصورة المتكلم بعد ما حذفنا منهُ ما لا حاجة اليهِ . وزدنا فيهِ بعض الزيادات وضعناها بين قوسين

وابن بطوطه هو شرف الدين ابو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الرحالة المشهور ولد بطنجة سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤) وخرج منها سائحاً سنة ٧٢٥ (١٣٢٥) فجاء الاسكندرية والقاهرة وكانت اكبر المدن حينئذٍ على ما يرجح ما عدا بعض مدن الصين وحاول المسير الى مكة بطريق عيذاب فتعذر عليهِ ذلك فانقلب راجعاً الى مصر وسار الى فلسطين فحلب فدمشق ومنها الى المدينة ومكة حاجّاً . ثم زار مشهد الامام علي في مشهد وسار منها الى واسط فالبصرة وقطع جبال خوزستان الى اصفهان وشيراز وعاد الى الكوفة فبغداد فالموصل وديار بكر . وحجّ ثانية وجاور ثلاث سنوات وجاء عدن وعبر الى افريقية وزار مباسا وكلوى ثم عاد الى عمان وهرمز ومكة وحج ثالثة ثم جاء القاهرة بطريق اسوان وذهب الى بلاد الشام وبر الاناضول وعبر البحر الاسود واتصل بالسلطان محمد اوزبك صاحب تلك البلاد ووصل الى مدينة بلغار حيث العرض ٥٤ درجة و٥٤ دقيقة لكي يشهد قصر ليالي الصيف وحاول الوصول الى الارض المظلمة . وسار الى القسطنطينية في عهد الامبراطور اندرونيكس الثالث وعاد الى بلاد السلطان محمد اوزبك وقطع الى خوارزم وبخارى وسار الى كابول بطريق خرسان ودخل بلاد السند وانتقل الى ملتان ومنها الى دهلي عاصمة السلطان محمد تغلق واقام هناك ثماني سنوات ثم أوفد الى بلاد الصين فمرَّ على جزائر المالديف بجزيرة سيلان وعبر الى بنجالة وعاد فزار جاوة وصومطرا ووصل الى الصين ثم عاد الى صومطرا وملبار وعمان وبلاد فارس وبغداد وتدمر ودمشق وحمص وحلب والقدس والقاهرة . وحجّ حجة رابعة وعاد الى فاس بطريق سردينيه فوصلها بعد ما قضى في رحلاته هذه اربعاً وعشرين سنة وقطع الى الاندلس وعاد الى مراكش ومنها الى مكناسة ففاس ورحل من هناك الى بلاد السودان وهي الرحلة الاخيرة التي اردنا تفصيلها هنا قال

ودّعت مولانا ايدهُ الله (الامام الخليفة امير المؤمنين ابو عنان فارس المريني من آل

عبد الحق) وتوجهت الى بلاد السودان فوصلت الى مدينة سجلماسة وهي من احسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر لكن تمر سجلماسة اطيب ونزلت عند الفقيه ابي محمد البشري وهو الذي لقيت اخاه بمدينة قلهاتة من بلاد الصين فيا شدة ما تباعدا فاكرمني غاية الاكرام واشتريت بها الجمال وعلفتها اربعة اشهر ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ٧٥٣ (١٨ فبراير ١٣٥٢ م) في رفقة فيها جماعة من تجار سجلماسة فوصلنا بعد ٢٥ يوماً الى تغازى وهي قرية لا خير فيها من عجائبها ان بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ولا شجر بها وانما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الارض فيوجد منهُ الواح ضخام متراكبة كأنها قد نُحتت ووضعت تحت الارض يحمل الجمل منها لوحين . ولا يسكنها الا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويعيشون بما يجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن الالبان (الذرة) المجلوب من بلاد السودان . ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منهُ بمدينة ايوالاتن بعشرة مثاقيل الى ثمانية وبمدينة مالي بثلاثين مثقالاً الى عشرين وربما انتهى الى اربعين مثقالاً (المثقال من الذهب يساوي نحو ٤٥ غرشاً) وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونهُ قطعاً ويتبايعون بهِ . وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر . واقمنا بها عشرة ايام في جهد لان ماءها زعاق وهي اكثر المواضع ذباباً ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشر لا ماء فيها الا في النادر . ووجدنا نحن بها ماء كثيراً في غدران ابقاها المطر . والكمأة بتلك الصحراء كثيرة . ووصلنا الى تامرّهلا وهي احسن ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة ايام فيستريحون ويصلحون اسقيتهم ويملأونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح ثم وصف مسيرهم في الصحراء الى ان دخلوا مدينة ايوالاتن فقال)

ووصلنا الى مدينة ايوالاتن في غرة شهر ربيع الاول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة وهي اول عمالة السودان ونائب السلطان فيها فربا حسين ومعنى فربا نائب ولما وصلناها ذهبنا الى الفربا وهو جالس على بساط في سقيف واعوانهُ بين يديهِ بايديهم الرماح والقسي وكراديس مسوفة من ورائهِ ووقف التجار بين يديهِ وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منهُ احتقاراً لهم فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء ادبهم واحتقارهم للابيض وقصدت دار ابن بداه وهو رجل فاضل من اهل سلا كنت كتب لهُ ان يكتري لي داراً ففعل ذلك وكانت اقامتي بايوالاتن نحو خمسين يوماً واكرمني اهلها واضافوني منهم قاضيها محمد بن عبد الله ابن ياسر واخوهُ الفقيه المدرس يحيى . وبلدة ايوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات

يزدرعون في ظلالها البطيخ وماؤهم من احساء بها ولحم الضان كثير فيها وثياب اهلها حسان مصرية واكثر السكان بها من مسوفة ونساؤهم الجمال الفائق وهنّ اعظم شأناً من الرجال

والمسوفة عجيب امرهم فاما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب احدهم الى ابيه بل ينتسب الى خاله . ولا يرث الرجل الاّ ابناء اخته دون بنيه وذلك شيء ما رأيته في الدنيا الاّ عند كفّار بلاد والليبار من الهنود . واما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلّم الفقه وحفظ القرآن . واما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهنّ على الصلوات . ومن اراد التزوج منهنّ تزوج لكنهنّ لا يسافرن مع الزوج ولو ارادت احداهنّ ذلك لمنعها اهلها . والنساء هنالك يكون لهنّ الاصدقاء والاصحاب من الرجال الاجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الاجنبيّات ويدخل احدهم دارهُ فيجد امرأتهُ ومعها صاحبها فلا يُنكر ذلك

دخلت يوماً على القاضي بايوالاتن بعد اذنهِ في الدخول فوجدت عندهُ امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبت واردتُ الرجوع فضحكتْ مني ولم يدركها خجل وقال لي القاضي لمَ ترجع انها صاحبتي . فعجبتُ من شأنهما فانهُ من الفقهاء الحجاج

ودخلتُ يوماً على ابي محمد بندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبتهِ فوجدتهُ قاعداً على بساط وفي وسط دارهِ سرير مظلّل عليهِ امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان فقلت لهُ ما هذه المرأة فقال هي زوجتي فقلت وما الرجل الذي معها منها فقال هو صاحبها فقلت لهُ ارتضى بهذا وانت قد سكنت بلادنا وعرفت امور الشرع فقال لي ان مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحُسن طريقة لا تهمة فيها ولسن كنساء بلادكم . فعجبت من رعونته وانصرفتُ عنهُ فلم اعُد اليهِ بعدها . واستدعاني مرات فلم اجبهُ

نقول ولو دخل ابن بطوطه بيوت الاوربيين في هذا العصر لرأى فيها ما رآهُ في بيت هذا الرجل ونساؤهم على تمام العفّة فهو مخطئ اذا بنى ارتيابهُ بعفة نساء ايوالاتن على مجالستهنّ الرجال وسبب خطاهِ انهُ لم يعتد رؤية النساء مع الرجال على هذه الصورة كما ان هذا الرجل محمد المسوفي مخطئ في حسبانهِ نساء المغرب اقل عفّة من غيرهن فيحجّبنّ . ثم قال ابن بطوطه

ولما عزمت على السفر الى مالي وبينها وبين ايوالاتن مسيرة اربعة وعشرين يوماً لم اجد اكثر دليلاً من مسوفة اذ لا حاجة الى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق وخرجت في ثلاثة من اصحابي والطريق كثيرة الاشجار واشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها وبعضها لا اغصان لها ولكن ظل جذعها يستظل بهِ الانسان . وبعض تلك الاشجار قد

امرأة من نساء كوراما بالسودان الغربي

امرأة من نساء السودان الغربي والنظم في عنقها

مقتطف فبراير ١٩١٦

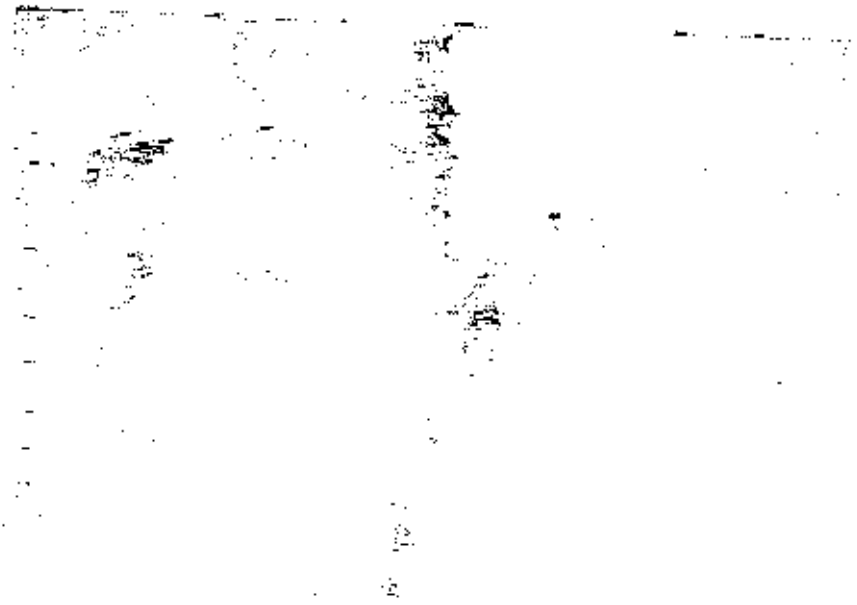

استأمن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ويشرب الناس من الماء الذي فيها ويكون في بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس . ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلاً حائكاً قد نصب فيها مرمته وهو ينسج فعجبت منه . وفي اشجار هذه الغابة ما يشبه شجرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وفيها اشجار تثمر شبه الفقوص فاذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالاسواق . ويستخرجون من هذه الارض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الخمص المقلو وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالقرقي . والقرقي ثمر كالاجاص شديد الحلاوة يدق عظمه فيستخرج منه زيت لم فيه منافع قيل انهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويطلون به الدرك تسطح بالجير . وهو عندهم كثير متيسر ويحمل من بلد الى بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه النقلة ببلادنا . والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشاً حسناً . واذا سافر احدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه واوانيه التي يأكل ويشرب بها وهي من القرع . والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا اداماً ولا ديناراً ولا درهماً انما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم وبعض السلع المطرية وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتامرغنت وهو بخورهم فاذا وصل قرية جاء نساء السودان بالالي واللبن والدجاج ودقيق الذرة والارز والفوني وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكس والعصيدة ودقيق اللوبياء فيشتري منهن ما احب من ذلك

وبعد مسيرة عشرة ايام من ايوالاتن وصلنا الى قرية زاغري وهي كبيرة يسكنها تجار السودان ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الإباضية . ومن هذه القرية يجلب الالي الى ايوالاتن . ثم سرنا من زاغري فوصلنا الى النهر الاعظم وهو النيل ويخدر النيل منها الى كابرة ثم الى زاغة . ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي واهل زاغة قدماء في الاسلام لهم ديانة وطلب للعلم . ثم يخدر النيل من زاغة الى تنبكتو ثم الى كوكو ثم الى بلدة مولي وهي آخر عمالة مالي ثم الى يوفي وهي اكبر بلاد السودان وسلطانها من اعظم سلاطينهم ولا يدخلها الابيض من الناس لانهم يقتلونه قبل الوصول اليها . ثم يخدر منها الى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم الى دنقلة وهي اكبر بلادهم وسلطانها يدعى بابن كنز الدين اسلم في ايام الملك الناصر ثم يخدر الى جنادل وهي آخر عمالة السودان واول عمالة اسوان تقول والنهر الذي وصل اليه ابن بطوطه حينئذ هو نهر النجر لا نهر النيل وهو يبتدئ في

غرب افريقيه فيجري اولاً الى الشمال الشرقي ثم يتحدر الى الجنوب قليل الى الشرق ويصب في خليج غينيا في الغرب الجنوبي من افريقية ولكن القدماء كانوا يظنون انهُ يسير شرقاً الى ان يلتقي بنيل مصر وانهُ هو اصل النيل وذلك خطأ كما لا يخفى

وعاد ابن بطوطه بعد ذلك الى وصف هذه المدن وما وجدهُ فيها قال

مدينة مالي حضرة (عاصمة) ملك السودان وكان محمد بن الفقيه قد اكترى لي داراً فيها ازاء دارهِ فتوجهت اليها وجاء صهرهُ الفقيه المقرئ عبد الواحد بشمعة وطعام ثم جاء ابن الفقيه اليَّ في الغد وشمس الدين بن النقويس وعلي الزودي المراكشي وهو من الطلبة ولقيت القاضي عبد الرحمن وهو من السودان حاجٌّ فاضل لهُ مكارم اخلاق ولقيت الترجمان دوغا وهو من افاضل السودان وكبارهم وكان ابن الفقيه متزوجاً بنت عم السلطان فكانت تتفقدنا بالطعام

وسلطان مالي هو منسى سليمان ومعنى منسي سلطان لهُ قبة مرتفعة بابها بداخل دارهِ يقعد فيها اكثر الاوقات ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب او هي فضة مذهبة وعليها ستور ملف فاذا كان يوم جلوسهِ بالقبة رفعت الستور فعلم انهُ يجلس فاذا جلس أُخرج من شباك احدى الطاقات شُرابة حرير قد رُبط فيها منديل مصري مرقوم فاذا رأى الناس المنديل ضُربت الاطبال والابواق . ثم يخرج من باب القصر نحو ثلثماية من العبيد في ايدي بعضهم القسي وفي ايدي بعضهم الرماح الصغار والدرق فيقف اصحاب ازماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس اصحاب القسي كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان يذكرون انهما يفعلان من العين وعند جلوسهِ يخرج ثلاثة من عبيدهِ مسرعين فيدعون نائبهُ فنجاموسي وتأتي الفوارية وهم الامراء ويأتي الخطيب والفقهاء فيقعدون امام الحضارية يمنة ويسرة في المشور ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليهِ الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها وعلى رأسهِ عمامة ذات حواشي لم يسبق لغيرها صنعة بديعة وهو متقلد سيفاً غمدهُ من الذهب وفي رجليهِ الخف والمهاميز ولا يلبس احد ذلك اليوم خفاً غيرهُ . ويكون في يدهِ ريحان صغيران احدهما من ذهب والآخر من فضة واسنتهما من الحديد ويجلس الاجناد والولاة والفتيان والمسوفة وغيرهم خارج المشور في شارع متسع فيهِ اشجار وكل فواري بين يديهِ اصحابهُ بازماح والقسي والاطبال والابواق وبوقاتهم من انياب الفيلة وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاءة ولها صوت عجيب . ولكل فواري كنانة قد علقها بين كتفيهِ وقوسهُ بيدهِ وهو راكب فرساً واصحابهُ بين مشاة وركبان . ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف فمن

اراد ان يكلم السلطان كلم دوغا ويكلم دوغا ذلك الواقف ويكلم الواقف السلطان

ويجلس السلطان ايضاً في بعض الايام بالمشور وهناك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البنبي تفرش بالحرير وتجعل الخادم عليها ويرفع الشطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي . ويخرج السلطان من باب في ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها اطراف مثل السكاكين رقاق طولها ازيد من شبر واكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التي تسمى المُطَنْفَس ويخرج بين يديه المغنون بايديهم قناطير الذهب والفضة وخلفه نحو ثلثمائة من العبيد اصحاب السلاح ويمشي مشياً رويداً ويكثر التأني وربما وقف فاذا وصل الى البنبي وقف ينظر في الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والابواق والانفار ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون التآئب والفرارية فيدخلون ويجلسون ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما يقف دوغا على الباب وسائر الناس في الشارع تحت الاشجار

وحضرت بمالي عيدَي الاضحى والفطر فخرج الناس الى المصلّى وهو بقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان . والسودان لا يلبسون الطيلسان الاّ في العيد ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فانهم يلبسونه في سائر الايام . وكانوا يوم العيد بين يدي السلطان وهم يهللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحُمْر من الحرير ونصب عند المصلّى خباءٌ فدخل السلطان اليه واصلح من شأنه ثم خرج الى المصلّى فقضيت الصلاة والخطبة

ويجلس السلطان في ايام العيدين بعد العصر على البنبي وتأتي السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب واغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور ويقف على رأسه اربعة من الامراء يشرّدون الذباب وفي ايديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الاربع وجواريه وهنّ نحو مئة عليهنّ الملابس الحسان وعلى رؤوسهنّ عصائب الذهب والفضة فيها تفاصيح ذهب وفضة وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه ويضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قريبات ويغني بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وافعاله ويغني النساء والجواري معهنّ ويلعبن بالقسي . ويلعب دوغا بالسيف لعباً بديعاً وعند ذلك يأمر السلطان بالاحسان له فيؤتى بصرّة فيها مثنا مثقال من التبر . وفي كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه

ستأتي البقية